عودة إلى تحفة الأستاذ على طه

أرواح وأشباح

للأستاذ محمد توحيد السلحدار بك

— ١ —

اطلع الأستاذ توحيد بك على نقد فى « الثقافة » لـ « أرواح و أشباح » ، فحرك ذلك نشاطه لاستئناف البحث فى هذه الملحمة الرفيعة تحليلا لمغزى القصيدة ، وتعقيباً على رأى الناقد . (الرسالة)

هى الأرواح والأشباح الماثلة فى البشر أجمعين ، ويمثلها أبطال يحييهم فى المخيلة فن الشاعر المبتكر فى تحفته العربية . ولا بأس بالعودة إلى الحديث فى موضوعها : فإن التحف الفائقة من شأنها أن تحرك الخواطر والخوالج فى كل وقت على الدهر ، فيكثر الكلام عليها من كل وجه . فلننظر المرة فيما قدم إلينا هذا الشاعر المفلق من صنيع كما هو :

هو قصة الروح والجسد فى محاورة مدارها السر فى تجاذب الرجل والمرأة ، وأثر الغريزة فى الفن بينهما . وهذا موضوع جدى بعيد الغور ، أحسن معالجته شاعر متثقف ، وبناه على أساس متين من وجدانيات وفكر جديرة بالنظر

والفكرة الرئيسية فى الموضوع ، هى أن بين الروح والجسد تفاعلاً ، وبين القيم الأخلاقية والغريزة تدافعاً ؛ وأن هذا التفاعل وهذا التدافع هما العاملان الخفيان المسيران للحياة البشرية . وهذه الفكرة الأصلية مستحكمة فى صلب الصنيع ، مرفرفة على كلامه من أوله إلى آخره ؛ وهى لذلك أس الوحدة الجامعة لأطرافه ، يؤيدها سائر الأسباب المتممة لهذه الوحدة المتينة (١) .

أما خلاصة المحاورة فيما يتعلق بأثر الغريزة فى الفن بين الرجل والمرأة ، فهى أن المرأة تلهم الفنان بجمالها الجسدى وجمالها الروحى فيراها دمية صورت من نقاء ، ويرى فيها ما لا تحد النهى ، كأنها معنى وراء الخيال . غير أن الشهوة الجائعة فيها ، بل الغريزة العاتية فيهما ، توقعهما فى الخطيئة ؛ فالفنان يستلهم الشر سحر البيان ، وتصير الفنون رمز الآثام . وتلك حال الآدمية ، يريد الفن أن يعلو بها ، فيقعدها الجسد بغرائزه . على أن أهل الفن منهم من يحتمل سعير الحياة فتقوى روحه ، ومنهم من يعشو بنور هذا السعير فتغلبه الغريزة :

شفت غلة الفن حتى ارتوى   وإن دنس الفن من طهرها (١)
خطيئتها قصة الملهمين   وإغراؤها الفرح المفتقد
بأرواحهم يرتقون الخلود   على سلم من متاع الجسد
وما الفن إلا سعير الحياة   ونورتها فى محيط الأبد
لهيب إذا الروح مرت به   تضاعفت الروح فى ناره
يطيق القوى لظى جمره   ويعشو الضعيف بأنواره
وما الآدمية بنت السماء   ولكنها بنت ماء وطين
يريد لها الفن أفق النجوم   فيقعدها جسم عبد سجين

كلام فى الفن والفنانين ، تتحدث به فى السماء أرواح أسماؤها إغريقية مستعارة من الأساطير ؛ ولكن هذه الأرواح رموز إلى الآدميين ؛ والفنانون بشر على كل حال ؛ فحديث الغريزة العاملة فيهم يعنى معهم سائر البشر . ولذا جاء الكلام فى الفن وسيلة فنية شعرية إلى إبداع ملحمة فى شأن الإنسانية منذ نشأتها ، ومن أقدم عصور اليونان ، ومن أيام السامرى وبنى إسرائيل وموسى فى أرض مدين ؛ وتمنى البيض وغيرهم ، حتى زنوج هاواى ؛ وتقص طبيعة البشر وأثر الغريزة فى الرجال والنساء طرًّا :

نعم ، أنت هن ... نعم ، ما أرى؟   أرى الكل فى امرأة واحده
لقد فنيت فيك أرواحهن   وها أنت أيتها الخالده
أأبغض « حواء » وهى التى   عرفت الحنان لها والرضى ؟
ورثت هواها فرمت الحياة   وحبب لى العالم المبغضا
هو الرجل القلب ، لا غيره   فأودعنه القبس المضرما
إذا ما اقتحمتن هذا السياج   فقد خضع الكون واستسلما
هنالك حيث تشب الحياة   [على الأرض]
وحيث الوجود جنين العدم
وحيث الطريدان شجا الكئوس
وجنا صبابتها من قدم
وما أخطأ الطيف ألوانه   [فى الزنوج]
ولكنه اللهب الأحمر
لهم أعين تتملى الجمال   وأفئدة بالهوى تشمر

(١) حالت ضرورة الايجاز دون زيادة بيان هنا فى شأن هذه الوحدة خصوصا بعد مقالة سابقة فى العدد ٤٦٦ من الرسالة

(١) الأبيات المختارة فى هذه المقالة وما يتبعها فى العدد الآتى منقولة بلا محافظة على ترتيبها فى الملحمة

تفرّد فهمُ بالخفاء وصيغ بفطرتهم واتسم
له بأس « مانا » وإيحاؤه إذا اضطربت روحه بالألم
ورقة « هاواى » فى شدوها إذا جاش خاطرها بالنغم
هم الناس لا يعشقون الخيال إذا لم يكن حافزاً للطماع
هم الناس لا يعبدون الجمال إذا لم يكن نُهزة للمتاع
هم الناس لا يألفون الحياة إذا لم تكن معرضاً للخداع

هذا ، إلى أن المقدمة الشعرية والملحمة ذاتها تدلان دلالة واضحة على أن الشاعر قد طافت خواطره المجنحة فى أحوال البشرية منذ أقدم القدم إلى حاضرها ؛ وأن مخيّلته الخصبة ، وقلبه الفياض ، قد تأثرا من عقائد راسخة فى نفسه ... نفسه المستنيرة بأدب جمّ وبعاثور فى الإنسانية ؛ وأن هذه النفس الحية ، عرتها هِزّة الإلهام ، فتبعّث منها هذا الشعر الصادق المشرق الآسر :

إلى قمــة الزمن الغــابر [من المقدمة الشعرية]
سمت ربة الشعر بالشــاعر
يشق الأثير صدى عابرا وروحاً مجنّحة الخــاطر
وأوفت على عالَم لم يكن غريباً على أمسها الدابر
نمت فيه بين بنات السديم وشبّت مع الفلك الدائر
مشاهد شتى وعتها العقول وغابت صُواها عن الناظر
وجود حوى الروح قبل الوجود وماض تمثّل فى حاضر
تبدّى لها فانجلى شكلها وثاب إلى وعيها الذاكر
وأصغت فرنّت على سمعها رواية ميلادها الغابر

* * *

على مذبح الحب من قلبها سراج يسبّح مَن لألأه
وتمشى الحياة على نوره وما نوره غير عين امرأه
هو الحب ؟.. لا .. بل نداء الحياة تلبيه أجسادنا الظامئه
يخفّ دمي لصداه الحبيب وتدفعني القدرة الهازئه
قلوب تلذّ بتعذيبها غرائز عاتية عارمه
محت من خُمار ملذاتها تكشّف أهواءها الآثمـه
هو ابن السماء ، ولكنه من النقص تركيبه والتمام
صناع الطبيعة بل صنعها فنا دمامته والوسام
يسفّ إلى حيث لا ينتهى ويسمو إلى قمة لا ترام
ويسقى بكأس إلاهية مرنّقة بالهوى والأثام

* * *

غـدا تدرج الروح فى طيفها [من الخاتمة]
وما الطيف للروح إلا قنـاع
سترقد فى غورها الذكريات وتوقظهن السنون السراع
وتمشى لحاضرها فى الحياة بمصباح ماض خفى الشعاع
وكم نبأة كالحديث الجديد وما هو إلا القديم السماع
من الخيـر والشر إلهامها مقادير تجرى بهن اليراع

ما أحب هذا الشعر وأسرعه إلى القلب واللب ! وما أنفسه فى الأدب ! ثم إنه قريب إلى المعقول على نظريتى الحياة فى الفلسفة العلمية : النظرية الروحية والنظرية الآلية !

فقد فطر الإنسان على غريزتين أصليتين ، تعمل إحداهما على حفظ الفرد وتعمل الأخرى على حفظ النوع ، وهذه هى علة التجاذب القاهر بين الرجل والمرأة ، ولو بطل عملها لانقرض النوع

والجسد مكمن الغريزة ، أما الروح فهي مجمع الملكات السامية من المخيلة والشعور أو الوجدان والعقل والإرادة ؛ وهى مبتدعة القيم الأخلاقية العالية والشعر وجميع الفنون

والإنسان يسف بغرائزه الحيوانية ، ويسمو بملكاته الروحية ؛ وقد تدرج بها إلى إنسانيته الحاضرة فى مراقى أطوار غابت معالمها فى غياهب الدهارير . ولاحظ الآدمي فى حين من الدهر طواه الماضى السحيق أن هذه الملكات التى يتفوق بها على الحيوان تذهب مع الروح ، وأن من فارقته روحه بقى جثة هامدة من اللحم والدم لا تلبث أن تنحل ؛ ولذا قيل إن الروح هى الأصل السماوى ، وما الجسد إلا شبح تقمصته عند هبوطها من العالم العلوى

والملكات الروحية تؤثر فى الجسد وغرائزه ، كما أنها تتأثر منها . وهذا التفاعل مختلف الأثر باختلاف عوامل شتى ، كالوراثة والعادة والمعيشة والبيئة ؛ مختلف الأثر فى كيان كل شخصية ، وفى شعورها باللذة والألم ؛ وهذان هما سبب الفضيلة والخير ، والرذيلة والشر جميعاً ؛ والفضائل والرذائل خلال فى البشر على نسب متفاوتة ؛ فمنهم من هم أدنى إلى الحيوان ، ومنهم من هم أدنى إلى الإنسان المثالى . وفى سورة (الشمس) : « ونفسٍ وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح مَنْ زكاها ، وقد خاب من دساها »

تؤثر الملكات فى غريزة حفظ النوع التى هى علة التجاذب القاهر بين الرجل والمرأة ، فتلطف من حدتها وتهذبها بقيم أخلاقية هى قوام الحياة الاجتماعية ؛ ولكن هذه الملكات لا تكف الغريزة عن العمل . ولذا فهى تخفى فعل الغريزة وراء أستار من المعانى والخيالات والأسماء الشريفة ، إذ تسمى الجاذبية فى الذكر والأنثى جمالاً ، وسلطان الغريزة حباً ؛ وتسمى

اللذة من وصف الجمال والحب، أو من تصورها، فنا. بيد أنها لن تستطيع منع السنة الفطرية أن تبلغ غايتها من حفظ النوع. فإذا كان تغلب الغريزة خطيئةَ آدم وحواء فهي خطيئة يذوق الإنسان مرغماً مُرَّ عواقبها وحلوه، ولن ينال الغفران وإن كفّر عنها ما استطاع بفضائله

وفي ذلك حقائق كشفها الإنسان بخبرته الطويلة وعلمه(١)

وقد نظر الشاعر الملهم في ماضي الإنسانية البعيد وحاضرها، ورادت خواطره المجنحة سيرة البشر، ثم عرض بفنه الجميل ما جنت من يانع الثمر، في ملحمة من كنه الشعر وسحر البيان.

(البقية في العدد القادم) محمد فهمي السلحدار

---

(١) مصداق ذلك هو ما يلي من ترجمة جمل مختارة من كتاب «العلم والضمير» لصاحبه العالم فليكس له دانتيك:

إن غريزة الحفظ هي آلة الحياة (mécanisme). وإذا كثر تكرار فعل عقلي استحال إلى غريزة. وإن فعلا يكثر تكراره يدخل في حيز العقل الباطن

ومتى تميز جسم حي وتحدد، فإنه لا يظل ثابتاً على الاحتفاظ بصفاته المميزة من دون نهاية مدة حياته، ولولا ذلك لما وقع أي تطور، ولكانت الوراثة مطلقة

فإن مجموع الفروق التي تميز الطفل من الهرم، في الفرد نفسه، عظيم جداً؛ إذ هو جملة العادات كلها، والذكريات كلها، في هذا الفرد الذي جمعها في مدة حياته بأسرها. والتغيرات المحدودة في مدة حياة الفرد تتجمع في مجرى حياة الأنسال المتتابعة. والتمثيل (assimilation) والعادة والتقليد هي مميزات الحياة. والوراثة تستحيل بالتربية. والتربية تعمل في اتجاه مضاد لاتجاه الوراثة

والانسان، باعتباره فرداً تجنب جميع أسباب الهلاك إذ هو باق، قد = كسب خبرة فردية بالعالم المحدق به، خبرة انتفع منها نسله، وكونت منطقهم؛ وهو، باعتباره عضواً من جماعة، قد ثبت في وراثته الطاعة لاصطلاحات اجتماعية تحد ميدان نشاطه الفردي، وكان من امتداد هذه الطاعة أجيالا عديدة أن أصبحت ضرورة

إن الأصول الأخلاقية الموجهة لنشاطنا الاجتماعي هي الأثر الوراثي من الاصطلاحات التي كانت جميات الآباء والأجداد من القدم مؤسسة عليها. وهذه الأصول كائنة فينا للأسباب الوراثية عينها. غير أن درجة نموها تختلف لسوء الحظ في بني جنسنا، ويبدو أن حكمها معادل حكم منطقنا

إن ألوفاً من الأنسال المتتابعة في الحياة الاجتماعية أعت في الانسان كثرة فيها سرف، من الوجدانيات الأخلاقية؛ وقد أصبحنا لا نذكر أن أصل هذه الوجدانيات هو اجتماع البشر، لأنها استقرت في ضميرنا بالتدريج

إذا تمكن منا وجداني شديد فإننا لا نسأل أنفسنا عن أصله. ونحن لا نعمل أبداً إلا طوعاً لرغبة من ضميرنا، وعند ما تكون هذه الرغبة على صورة حاجة لا نتردد أبداً في قضائها: فنحن نأكل حين نجوع

وفي الانسانية نزعة عامة إلى السعادة. وليست هذه النزعة إلا ترجمة غريزة الحفظ بلغة عاطفية. وهي في الحقيقة، تعريف الحياة بعينه، وكفاح الوراثة المنتصر في مواجهة التربية.

Science et Conscience — par Félix Le Dantec. 1916

سكك حديد الحكومة المصرية

دليل تليفون الاسكندرية طبعة سنة ١٩٤٣

تقبل من الآن ولغاية ١٥ نوفمبر سنة ١٩٤٢ الاعلانات المرغوب نشرها في دليل تليفون الاسكندرية طبعة سنة ١٩٤٣

وللزيادة في الإيضاح الرجا مخابرة:

قسم النشر والاعلانات — بالادارة العامة

بمحطة مصر